

كتاب ذم الغرور

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فمفتاح السعادة التيقُّظ والفطنة، ومنع الشقاوة الغرور والغفلة، فلا نعمة الله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدور بنور البصيرة، ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية، ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة، فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم: ﴿كَشَكَوْهُ فِيهَا مَصْبَاحٌ الْيَصْبَاحُ فِي رُجَاةِ الرَّجَاةِ كَأَنَّمَا كَوَّكَبٌ دَرِيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]، والمغترون قلوبهم: ﴿كَظَلَمْتُ فِي بَحْرِ لَيْحِي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ، سَحَابٌ ظَلَمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ يَكْذِبْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠] وإذا عرف أن الغرور هو أم الشقاوات ومنع المهلكات، فلا بد من شرح مداخله ومجاريه وتفصيل ما يكثر من وقوع الغرور فيه، ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه، فالموافق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد، فأخذ منها حذره وبنى على الحزم والبصيرة أمره. وفرق المغترين كثيرة ولكن يجمعهم أربعة أصناف:

الصنف الأول - من العلماء.

الصنف الثاني - من العباد.

الصنف الثالث - من المتصوفة.

الصنف الرابع - من أرباب الأموال، والمغتر من كل صنف فرق كثيرة وجهات غرورهم مختلفة، فمنهم من رأى المنكر معروفاً كالذي يتخذ المساجد ويزخر فيها من المال الحرام، ومنهم من لم يميز بين ما يسعى فيه لنفسه وبين ما يسعى فيه الله تعالى كالواعظ الذي غرضه القبول والجاه، ومنهم من يترك الأهم ويشغل بغيره، ومنهم من يترك

الفرص ويستغل بالنافلة، ومنهم من يترك اللباب ويستغل بالظاهر، كالذي يكون همه في الصلاة مقصوراً على تصحيح مخارج الحروف إلى غير ذلك من مداخل لا تتضح إلا بتفصيل الفرق وضرب الأمثلة. ولنبدأ أولاً بذكر غرور العلماء، ولكن بعد بيان ذم الغرور وبيان حقيقته وحدّه.

بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثاله:

اعلم أن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْرَنَ عَنْكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرَنَ عَنْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [التَّوْبَةِ: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فُتِنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمْ الْأَمَانَةُ﴾ [الْحَزَنَةِ: ١٤]، كافٍ في ذم الغرور وقد قال رسول الله ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله» [ضعفه الألباني ولكن معناه صحيح]، وكل ما ورد في فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور، لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل، إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ما هو به، والغرور هو جهل إلا أن كل جهل ليس بغرور. فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان، فمن اعتقد أنه خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه، فأكثر الناس إذا مغرورون، وإن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم، حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض، وأظهرها وأشدّها غرور الكفار وغرور العصاة والفساق.

والعصاة الذين ضيعوا أوامر الله تعالى وهجروا الأعمال الصالحة ولا بسوا الشهوات والمعاصي فهم مشاركون للكفار في الغرور لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة، نعم أمرهم أخف لأن أصل الإيمان يعصمهم عن عقاب الأبد فيخرجون من النار ولو بعد حين، ولكنهم أيضاً من المغرورين فإنهم اعترفوا بأن الآخرة خير من الدنيا ولكنهم مالوا إلى الدنيا وآثروها، ومجرد الإيمان لا يكفي للفوز، قَالَ الْعَالِي: ﴿وَإِنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، وَقَالَ الْعَالِي: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الْإِنشَاء: ٥٦]، ثم قال

النبي ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه» [متفق عليه]، وقال تعالى: ﴿وَالصَّبْرُ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ ٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿[العنكبوت: ١-٣]، فوعد المغفرة في جميع كتاب الله تعالى منوط بالإيمان والعمل الصالح جميعاً لا بالإيمان وحده، فهو لاء أيضاً مغرورون، أعني المطمئنين إلى الدنيا الفرحين بها المترفين بنعيمها المحبين لها، الكارهين للموت خيفة فوات لذات الدنيا دون الكارهين له خيفة لما بعده.

ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين. فأما غرور الكفار بالله: فمثاله قول بعضهم في أنفسهم وبألسنتهم: إنه لو كان الله من معاد فنحن أحق به من غيرنا ونحن أوفر حظاً فيه وأسعد حالاً، كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين إذ قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]. وكذلك وصف الله تعالى قول العاص بن وائل إذ يقول: ﴿لَأَوْتِيَنَّكَ مَا لَمْ يَلِدْ وَلَدًا﴾ [نجم: ٧٧]، فقال الله تعالى: ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [نجم: ٧٨-٧٩]، وروى عن خباب بن الأرت أنه قال: «كان لي على العاص بن وائل دين فجئت أتقاضاه فلم يقض لي، فقلت: إني أخذه في الآخرة، فقال لي: إذا صرت إلى الآخرة، فإن لي هناك ما لا وولداً أقضيك منه، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأَوْتِيَنَّكَ مَا لَمْ يَلِدْ وَلَدًا﴾ [نجم: ٧٧] [متفق عليه]. وقال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَدْقَنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وهذا كله من الغرور بالله.

وسببه قياس من أقيسة إبليس نعوذ بالله منه، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة، وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [الجن: ٨]، فقال تعالى جواباً لقولهم: ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيَنسَوْنَ الصَّبْرَ﴾ [الجن: ٨]، ومرة ينظرون إلى المؤمنين؛ وهم فقراء شعث غبر فيزدرون بهم ويستحقرونهم، فيقولون: ﴿هَؤُلَاءِ مَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣]، ويقولون: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الحجرات: ١١]، وترتيب

القياس الذي نظمه في قلوبهم أنهم يقولون: قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا، وكل محسن فهو محب، وكل محب فإنه يحسن أيضًا في المستقبل كما قال الشاعر:

لقد أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي

وإنما يقيس المستقبل على الماضي بواسطة الكرامة والحب إذ يقول: لولا أي كريم عند الله ومحبوب لما أحسن إليّ. والتلبس تحت ظنه أن كل محسن محب، لا بل تحت ظنه أن إنعامه في الدنيا إحسان، فقد اغتر بالله إذ ظن أنه كريم عنده بدليل لا يدل على الكرامة بل عند ذوي البصائر يدل على الهوان. ومثاله: أن يكون للرجل عبدان صغيران يبغض أحدهما ويحب الآخر، فالذي يحبه يمنعه من اللعب ويُلزِمه المكتب ويحبسه فيه ليعلمه الأدب، ويمنعه من الفواكه وملاذ الأطعمة التي تضره، ويسقيه الأدوية التي تنفعه. والذي يبغضه يهمله ليعيش كيف يريد فيلعب ولا يدخل المكتب ويأكل كل ما يشتهي، فيظن هذا العبد المهمَل أنه عند سيده محبوب كريم لأنه مكَّنه من شهواته ولذاته وساعده على جميع أغراضه فلم يمنعه ولم يحجر عليه، وذلك محض الغرور، وهكذا نعيم الدنيا ولذاتها فإنها مهلكات ومُبعدات من الله، «فإن الله يحمي عبده من الدنيا وهو يحبه كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه» [صحيح الجامع ١٨١٤]. هكذا ورد في الخبر عن سيد البشر.

وكان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا: ذنب عجلت عقوبته ورأوا ذلك علامة المقت والإهمال، وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا: مرحبًا بشعار الصالحين. والمغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظن أنها كرامة من الله، وإذا صرفت عنه ظن أنها هوان، كما أخبر الله تعالى عنه إذ قال: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْلَغَتْ رُبُّهُ فَاكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿٥٠﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْلَغَتْ رُبُّهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿٥١﴾﴾ [التجيد: ١٥-١٦]، فأجاب الله عن ذلك: ﴿كَلَّا ﴿٥٢﴾﴾ [التجيد: ١٧]، أي ليس كما قال إنما هو ابتلاء نعوذ بالله من شر البلاء ونسأل الله التثبيت فين أن ذلك غرور. قال الحسن: كذبها جميعًا بقوله: ﴿كَلَّا ﴿٥٣﴾﴾ يقول: ليس هذا بإكرامي ولا هذا بهواني،

ولكنّ الكريم من أكرمه بطاعتي غنياً كان أو فقيراً، والمهان من أهنته بمعصيتي غنياً كان أو فقيراً.

وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان بأن يعرف وجه كون الالتفات إلى شهوات الدنيا مبعداً عن الله ووجه كون التباعد عنها مقرباً إلى الله.

وأن يؤمن بكتاب الله تعالى ويصدق رسوله وقد قال تعالى: ﴿يَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُنَادُهُمْ مِنْ مَّاءٍ ذَرِيرَةٍ ۖ سُرَّحُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزُّمَرُ: ٥٥-٥٦]، وقال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الْأَنْعَامُ: ١٨٢]، وقال تعالى: ﴿فَتَحْنَأُ عَلَيْهِمُ الْبُيُوتُ كُلَّ شَوْءٍ حَتَّى إِذَا فُوحُوا بِمَاءٍ أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الْأَنْعَامُ: ٤٤]، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الْقُلُوبُ: ٤٤]، أنهم كلما أحدثوا ذنباً أحدثنا لهم نعمة، ليزيد غرورهم، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُكَلِّمُ لَهُمْ لِيَزِدُوا إِثْمًا﴾ [الْأَنْعَامُ: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [الْأَنْعَامُ: ٤٢]، إلى غير ذلك مما ورد في كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ، فمن آمن به تخلص من هذا الغرور إذ منشأ هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته، فإن من عرفه لا يأمن مكره ولا يغتر بأمثال هذه الخيالات الفاسدة، وينظر إلى فرعون وهامان وقارون وإلى ملوك الأرض وما جرى لهم كيف أحسن الله إليهم ابتداء ثم دمرهم تدميراً! فقال تعالى: ﴿هَلْ نَحْشُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ [يُوسُفُ: ٩٨]، وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراجه فقال: ﴿فَلَا يَأْمَنْ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الْأَنْعَامُ: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الْبَنَاءُ: ٥٠]، وقال عز وجل: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الْبَنَاءُ: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿يَنْهَى كَيْدُوكَ كَيْدًا ۖ وَكَيْدُكَ كَيْدًا ۖ فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ رُودًا﴾ [الطَّافِقُ: ١٥-١٧]، فكما لا يجوز للعبد المهمل أن يستدل بإهمال السيد إياه وتمكينه من النعم على حب السيد، بل ينبغي أن يحذر أن يكون ذلك مكرًا منه وكيدًا مع أن السيد لم يحذره مكر نفسه، فبأن يجب ذلك في حق الله تعالى مع تحذيره استدراجه أولى، فإذا من آمن مكر الله فهو مغتر، ومنشأ هذا الغرور أنه استدل بنعم الدنيا على أنه كريم عند ذلك المنعم،

مع احتمال أن يكون ذلك دليل الهوان، ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى، فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى ما يوافقه وهو التصديق بدلالته على الكرامة، وهذا هو حد الغرور.

المثال الثاني - غرور العصاة من المؤمنين بقولهم: إن الله كريم وإنا نرجو عفوه، واتكاهم على ذلك وإهمالهم الأعمال وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء، وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين وأن نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عميم، وأين معاصي العباد في بحار رحمته وإنا موحدون ومؤمنون؟ فترجوه بوسيلة الإيمان وربما كان مستند رجائهم التمسك بصلاح الآباء وعلو رتبته وينيى الغرور أن نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد أن يستصحب ولده معه في السفينة فلم يرد فكان من المغرقين: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي أَبْنَىٰ مِنْ أَهْلِ﴾ [هُود: ٤٥]، ﴿فَقَالَ الْعَالِي: ﴿قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هُود: ٤٦]، وأن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ استغفر لأبيه فلم ينفعه، وأن نبينا ﷺ وعلى كل عبد مصطفى استأذن ربه في أن يزور قبر أمه ويستغفر لها، فأذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار. [رواه مسلم]، فهذا أيضاً اغترار بالله تعالى، وهذا لأن الله تعالى يحب المطيع ويبغض العاصي، فكما أنه لا يبغض الأب المطيع ببغضه للولد العاصي، كذلك لا يحب الولد العاصي بحبه للأب المطيع، ولو كان الحب يسري من الأب إلى الولد لأوشك أن يسري البغض أيضاً بل الحق أن لا تزر وازرة وزر أخرى. ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه كان كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه، ويروى بشرب أبيه، ويصير عالماً بتعلم أبيه ويصل إلى الكعبة ويراهما بمشي أبيه، فالتقوى فرض عين فلا يجزي فيه والد عن ولده شيئاً وكذلك العكس، وعند الله جزاء التقوى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٢١﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ [عَبَسَ: ٣٤-٣٥]، إلا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتد غضب الله عليه فيأذن في الشفاعة له.

فإن قلت: فأين الغلط في قول العصاة والفجار إن الله كريم وإنا نرجو رحمته ومغفرته، وقد قال: «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيراً»، فما هذا إلا كلام صحيح

مقبول الظاهر في القلوب؟ فاعلم أن الشيطان لا يغوي الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر مردود الباطن، ولولا حُسن ظاهره لما انخدعت به القلوب، ولكن النبي ﷺ كشف عن ذلك فقال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله»، وهذا هو التمني على الله تعالى غير الشيطان اسمه فسماه: رجاء، حتى خدع به الجاهل. وقد شرح الله الرجاء فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البَقَّة: ٢١٨]، يعني أن الرجاء بهم أليق وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجْدَة: ١٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنَّمَا تَوْفِيقُكَ أَجُورُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزَّمَر: ١٨٥]، أفترى أن من استؤجر على إصلاح أو إن شرط له أجره عليها وكان الشارط كريماً يفي بالوعد مهما وعد ولا يخلف بل يزيد، فجاء الأجير وكسر الأواني وأفسد جميعها، ثم جلس ينتظر الأجر ويزعم أن المستأجر كريم، أفيراه العقلاء في انتظاره متمنياً مغروراً أو راجياً؟ وهذا للجهل بالفرق بين الرجاء والغرة. قيل للحسن: قوم يقولون: نرجو الله ويضيعون العمل فقال: هيهات هيهات! تلك أمانهم يترجحون فيها، من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه. وقال مسلم بن يسار: لقد سجدت البارحة حتى سقطت ثنيتاي! فقال له رجل: إنا لنرجو الله! فقال مسلم: هيهات هيهات؟ مَنْ رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه. وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولداً وهو بعد لم ينكح أو نكح ولم يجامع أو جامع ولم ينزل! فهو معتوه، فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن أو آمن ولم يعمل صالحاً أو عمل ولم يترك المعاصي فهو مغرور. فكما أنه إذا نكح ووطئ وأنزل بقي متردداً في الولد يخاف ويرجو فضل الله في خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلى أن يتم فهو كَيْسٌ، فكذلك إذا آمن وعمل الصالحات وترك السيئات وبقي متردداً بين الخوف والرجاء يخاف أن لا يُقبل منه وأن لا يدوم عليه وأن يختم له بالسوء، ويرجو من الله تعالى أن يثبتته بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت حتى يموت على التوحيد، ويحرس قلبه عن الميل إلى الشهوات بقية عمره حتى لا يميل إلى المعاصي

فهو كَيْسٌ، ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢]، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨]، وعند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [التوبة: ١٢]، أي علمنا أنه لا يولد إلا بوقاع ونكاح ولا ينبت زرع إلا بحرثة وبث بذر، كذلك لا يحصل في الآخرة ثواب وأجر إلا بعمل صالح، فارجعنا نعمل صالحًا، فقد علمنا الآن صدقك في قولك: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٣٨) ﴿وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى﴾ [التجدة: ٣٩-٤٠]، ﴿كَلَّمَآ أَلْفَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٨) ﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨-٩]، أي ألم نسمعكم سنة الله في عبادته وأنه: ﴿تُؤْتَى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وأن: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [الملك: ٣٨]، فما الذي غركم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم؟ ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٠) ﴿فَاعْرِضْهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَقًّا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠-١١].

فإن قلت: فأين مظنة الرجاء وموضعه المحمود؟ فاعلم أنه محمود في موضعين:

أحدهما - في حق العاصي المنهمك إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان: وأنتي تقبل توبتك فيقطعه من رحمة الله تعالى؛ فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء ويتذكر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، وأن الله كريم يقبل التوبة عن عباده، وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣) ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٣-٥٤]، أمرهم بالإنابة، وقال تعالى: ﴿وَلِيَّ لَغْفَارٍ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور، كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو في السوق فخطر له أن يسعى إلى الجمعة فقال له الشيطان: إنك لا تدرك الجمعة فأقم على موضعك فكذب الشيطان ومري يعدو وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راج، وإن استمر على التجارة وأخذ يرجو تأخير الإمام للصلاة لأجله إلى الوقت أو لأجل غيره أو لسبب من الأسباب التي لا يعرفها فهو مغرور.

الثاني - أن تفتّر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض، فيرجّي نفسه نعيم الله تعالى وما وعده به الصالحين حتى ينبعث من رجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل ويتذكر قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ [المؤمنون: ١-٢]، إلى قوله: ﴿الَّذِينَ يَرْتُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١١]، فالرجاء الأول: يجمع القنوط المانع من التوبة، والرجاء الثاني: يجمع الفتور المانع من النشاط والتشمر، فكل توقع حثّ على توبة أو على تشمر في العبادة فهو رجاء، وكل رجاء أوجب فتوراً في العبادة وركوناً إلى البطالة فهو غرة، كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشغل بالعمل بقول له الشيطان: مالك ولا يذاء نفسك وتعذيبها ولك رب كريم غفور رحيم؟ فيفتّر بذلك عن التوبة والعبادة فهو غرة، وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول: إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوبة شديد العقاب، وإنه مع أنه كريم خلّد الكفار في النار أبد الآباد، مع أن لم يضره كفرهم، وقد خوفني عقابه فكيف لا أخافه وكيف أغتر به؟

فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل، فما لا يبعث على العمل فهو تمن وغرور. ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم على الدنيا وسبب إغراضهم عن الله تعالى وإهمالهم السعي للآخرة، وهذا ما غلب على قلوب آخر هذه الأمة، فقد كان الصالحون في الإعصار الأول يواظبون على العبادات ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون يخافون على أنفسهم وهو طول الليل والنهار في طاعة الله يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ويكون على أنفسهم في الخلوات. وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين مع إكبابهم على المعاصي وانهمالكهم في الدنيا وإغراضهم عن الله تعالى، زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله، راجون لعفوه ومغفرته، كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون. فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى وينال بالهوينى فعلام إذن كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم؟ وقد ذكرنا تحقيق هذه الأمور في كتاب الخوف والرجاء، وقد أخبر الله تعالى عن أهل

الكتاب إِذْ قَالَ النَّبِيُّ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الْإِنْفَاق: ١٦٩]، ومعناه أنهم: ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ [الْإِنْفَاق: ١٦٩]، أي هم علماء ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ [الْإِنْفَاق: ١٦٩]، أي شهواتهم من الدنيا حراماً كان أو حلالاً. وقد قَالَ النَّبِيُّ: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٌ﴾ [الْحَجَر: ٤٦]، ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [الْبُرْهَان: ١٤]، والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتحذيف، لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه إن كان مؤمناً بما فيه. وترى الناس يهدّونه هذا، يخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها وكأنهم يقرأون شعراً من أشعار العرب لا يهمهم الالتفات إلى معانيه والعمل بما فيه، وهل في العالم غرور يزيد على هذا؟ فهذه أمثلة الغرور بالله وبيان الفرق بين الرجاء والغرور، ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاصٍ إلا أنّ معاصيهم أكثر وهم يتوقعون المغفرة ويظنون أنهم تترجح كفة حسناتهم مع أنّ ما في كفة السيئات أكثر، وهذا غاية الجهل، فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام، ويكون ما يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضعافه، ولعل ما تصدّق به من أموال المسلمين! وهو يتكل عليه ويظن أنّ أكل ألف درهم حرام يقاومه التصدق بعشرة من الحرام أو الحلال، وما هو إلا كمن وضع عشرة دراهم في كفة ميزان وفي الكفة الأخرى ألفاً وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة، وذلك غاية الجهل، نعم. ومنهم من يظن أنّ طاعاته أكثر من معاصيه لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه، وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها كالذي يستغفر الله بلسانه أو يسبح الله في اليوم مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد، ويكون نظره إلى عدد تسبيحه وأنه استغفر الله مائة مرة، وغفل عن هذيانه طول نهاره، الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة أو ألف مرة، وقد كتبه الكرام الكاتبون وقد أوعده الله بالعقاب على كل كلمة فقال: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، فهذا أبداً يتأمل في فضائل التسبيحات والتهليلات، ولا يلتفت إلى ما ورد من عقوبة المغتابين

والكذابين والناميين والمنافقين الذين يظهرون من الكلام ما لا يضمرونه إلى غير ذلك من آفات اللسان، وذلك محض الغرور.

ولعمري لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجره النسخ لما يكتبونه من هذيانه الذي زاد على تسبيحه لكان عند ذلك يكف لسانه حتى عن جملة من مُهَمَّاته، وما نطق به في فتراته كان يعده ويحسبه ويوازنه بتسبيحاته، حتى لا يفضل عليه أجره نسخه! فيا عجباً لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفاً على قيراط يفوته في الأجرة على النسخ، ولا يحتاط خوفاً من فوت الفردوس الأعلى ونعيمه! ما هذه إلا مصيبة عظيمة لمن تفكر فيها! فما هذه أعمال مَنْ يصدّق بما جاء به القرءان.

بيان أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أقسام:

الصنف الأول - أهل العلم والمغترون منهم فرق:

فرقة: أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها واشتغلوا بها وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات، واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان وأنهم بلغوا من العلم مبلغاً لا يعذب الله مثلهم، بل يقبل في الخلق شفاعتهم، وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله وهم مغرورون، فإنهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم، كمعرفة الحلال والحرام، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها، فهي علوم لا تتراد إلا للعمل ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل. فمثال هذا: كمريض به علة لا يزيلها إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة لا يعرفها إلا حذاق الأطباء، فيسعى في طلب الطبيب بعد أن هاجر عن وطنه حتى عثر على طبيب حاذق فعلمه الدواء وفصل له الأخلاط وأنواعها ومقاديرها ومعادنها التي منها تُجْتَلَب، وعلمه كيفية دق كل واحد منها وكيفية خلطه وعجنه، فتعلم ذلك وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن ورجع إلى بيته وهو يكررها ويعلمها المرضى ولم يشتغل بشرها واستعملها، أفترى

أَنْ ذَلِكَ يَغْنِي عَنْهُ مِنْ مَرَضِهِ شَيْئًا؟ هِيَ هِيَ هِيَ! لَوْ كَتَبَ مِنْهُ أَلْفَ نَسْخَةٍ وَعِلْمُهُ أَلْفَ مَرِيضٍ حَتَّى شَفَى جَمِيعَهُمْ وَكَرَّرَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ أَلْفَ مَرَّةٍ لَمْ يَغْنِهِ ذَلِكَ مِنْ مَرَضِهِ شَيْئًا، إِلَّا أَنْ يَزِنَ الذَّهَبَ وَيَشْتَرِيَ الدَّوَاءَ وَيَخْلُطَهُ كَمَا تَعْلَمُ وَيَشْرِبُهُ وَيَصْبِرُ عَلَى مَرَارَتِهِ، وَيَكُونُ شَرِبُهُ فِي وَقْتِهِ وَبَعْدَ تَقْدِيمِ الْإِحْتِمَاءِ وَجَمِيعِ شُرُوطِهِ، وَإِذَا فَعَلَ جَمِيعَ ذَلِكَ فَهُوَ عَلَى خَطَرٍ مِنْ شِفَائِهِ فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يَشْرِبْهُ أَصْلًا؟ فَهَمَّا ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ يَكْفِيهِ وَيَشْفِيهِ فَقَدْ ظَهَرَ غُرُورُهُ.

وهكذا الفقيه الذي أحكم علم الطاعات ولم يعمل بها وأحكم علم المعاصي ولم يجتنبها وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكَّى نفسه منها وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها فهو مغرور، إِذْ قَالَ الْعَجَّازُ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشَّمْسُ: ٩]، ولم يقل: قد أفْلَحَ مَنْ تَعْلَمَ كَيْفِيَّةَ تَزَكِّيَّتِهَا وَكَتَبَ عِلْمَ ذَلِكَ وَعِلْمَهُ النَّاسُ! وَعِنْدَ هَذَا يَقُولُ لَهُ الشَّيْطَانُ: لَا يَغْرُنْكَ هَذَا الْمِثَالُ فَإِنَّ الْعِلْمَ بِالدَّوَاءِ لَا يَزِيلُ الْمَرَضَ، وَإِنَّمَا مَطْلَبُكَ الْقُرْبَ مِنَ اللَّهِ وَثَوَابَهُ وَالْعِلْمَ يَجْلِبُ الثَّوَابَ، وَيَتْلُو عَلَيْهِ الْأَخْبَارَ الْوَارِدَةَ فِي فَضْلِ الْعِلْمِ. فَإِنْ كَانَ الْمُسْكِينُ مَعْتَوًى مَغْرُورًا وَافَقَ ذَلِكَ مَرَادَهُ وَهُوَ هَوَاهُ فَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ وَأَهْمَلَ الْعَمَلَ، وَإِنْ كَانَ كَيْسًا فَيَقُولُ لِلشَّيْطَانِ: أَتَذَكِّرُنِي فَضَائِلَ الْعَالَمِ وَتَنْسِينِي مَا وَرَدَ فِي الْعَالَمِ الْفَاجِرِ الَّذِي لَا يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَنَّهُ كَمِثْلِ أَلْكَبِ﴾ [الْأَنْعَامُ: ١٧٦]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الْحِجَّةُ: ٥]، فَأَيُّ خِزْيٍ أَعْظَمَ مِنَ التَّمَثِيلِ بِالْكَلْبِ وَالْحِمَارِ؟ وَقَوْلُ أَبِي الدَّرْدَاءِ: «وَيْلٌ لِلَّذِي لَا يَعْلَمُ مَرَّةً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَعَلِمَهُ، وَوَيْلٌ لِلَّذِي يَعْلَمُ وَلَا يَعْمَلُ سَبْعَ مَرَاتٍ، أَيْ أَنَّ الْعِلْمَ حُجَّةٌ عَلَيْهِ إِذْ يُقَالُ لَهُ: مَاذَا عَمَلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ وَكَيْفَ قَضَيْتَ شُكْرَ اللَّهِ؟»

وَأَمَّا الَّذِي يَدَّعِي عِلْمَ الْقَلْبِ: كَالْعِلْمِ بِاللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَهْمِلُ الْعَمَلَ وَيَضِيعُ أَمْرَ اللَّهِ وَحُدُودَهُ فَغُرُورُهُ أَشَدُّ، وَمِثَالُهُ كَمِثْلِ مَنْ أَرَادَ خِدْمَةَ مَلِكٍ فَعَرَفَ الْمَلِكَ وَعَرَفَ أَخْلَاقَهُ وَأَوْصَافَهُ وَلَوْنَهُ وَشَكْلَهُ وَطَوْلَهُ وَعَرْضَهُ وَعَادَاتِهِ وَمَجْلِسَهُ وَلَمْ يَتَعَرَفْ مَا يَحِبُّهُ وَيَكْرَهُهُ وَمَا يَغْضَبُ عَلَيْهِ وَمَا يَرْضَى بِهِ، أَوْ عَرَفَ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ قَصَدَ خِدْمَتَهُ وَهُوَ

ملابس لجميع ما يغضب به عليه، وعاطل عن جميع ما يحبه من زي وهئية وكلام وحركة وسكون، فورد على الملك وهو يريد التقرب منه والاختصاص به متلطخاً بجميع ما يكرهه الملك، عاطلاً عن جميع ما يحبه، متوسلاً إليه بمعرفته له ولنسبه واسمه وبلده وصوته وشكله وعادته في سياسة غلمانه ومعاملة رعيته. فهذا مغرور جداً إذ لو ترك المراد من قربه والاختصاص به، بل تقصيره في التقوى واتباعه للشهوات يدل علياً أنه لم ينكشف له من معرفة الله إلا الأسامي دون المعاني، إذ لو عرف الله حق معرفته لخشيته واتقاه.

وقد قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فَاطَةُ: ٢٨]، وفاتحة الزبور: «رأس الحكمة خشية الله»، وقال ابن مسعود: «كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار بالله جهلاً»، واستفتى الحسن عن مسألة فأجاب فقليل له: «إن فقهاءنا لا يقولون ذلك، فقال: وهل رأيت فقيهاً قط؟ الفقيه القائم ليله الصائم نهاره الزاهد في الدنيا». وقال مرة: «الفقيه لا يداري ولا يماري ينشر حكمة الله، فإن قبلت منه حمد الله وإن ردت عليه حمد الله، فإذا الفقيه من فقه ن الله أمره ونهيه وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه وهو العالم: «ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»، وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين.

وفرقة أخرى: أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء وطلب الرئاسة والعلاء وإرادة السوء للأقران والنظراء وطلب الشهرة في البلاد والعباد، وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم فهو مكب عليها غير متحرز عنها ولا يلتفت إلى الأخبار التي أوردناها في جميع ربيع المهلكات في الأخلاق المذمومة، فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ونسوا قوله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» [رواه مسلم]، فتعهدوا الأعمال وما تعهدوا القلوب - والقلب هو الأصل - إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم. ومثال

هؤلاء كبئر الحش ظاهرها حص وباطنها نتن، أو كبيت مظلم باطنه وضع سراج على سطحه فاستنار ظاهره وباطنه مظلم، ولا يخفى أن ذلك غرورن بل أقرب مثال إليه: رجل زرع زرعاً فنبت ونبت معه حشيش يفسده، فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله، فأخذ يجزءه وسه وأطرافه فلا تزال تقوى أصوله فتنبت، لأن مغارس المعاصي هي الأخلاق الذميمة في القلب، فمن لا يطهر القلب منها لا تتم له الطاعات الظاهرة إلا مع الآفات الكثيرة. بل هو كمریض ظهر به الجرب وقد أمر بالطلاء وشرب الدواء، فقنع بالطلاء وترك الدواء، وبقي يتناول ما يزيد في المادة، فلا يزال يطلي الظاهر والجرب دائم به يتفجر من المادة التي في الباطن.

وفرقة أخرى: علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها وأنهم أرفع عند الله من أن يتليهم بذلك، وإنما يتلي به العلوم دون من بلغ مبلغهم في العلم، فأما هم فأعظم عند الله من أن يتليهم، ثم إذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرئاسة وطلب العلو والشرف قالوا: ما هذا كبر، وإنما هو طلب عز الدين وإظهار شرف العلم ونصرة دين الله وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين! ونسي أن النبي ﷺ بماذا نصر الدين وبماذا أرغم الكافرين؟ ونسي ما روي عن الصحابة من التواضع، حتى عوتب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بذاذة زيه عند قدومه إلى الشام فقال: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب العز في غيره، وكذلك مهما أطلق اللسان بالحسد في أقرانه أو فيمن رد عليه شيئاً من كلامه لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ولكن قال: إنما هو غضب للحق ورد على المبطل في عدوانه وظلمه، ولم يظن بنفسه الحسد، حتى يعتقد أنه لو طعن في غيره من أهل العلم أو منع غيره من رئاسة زوحم فيها ما كان غضبه وعداوته لنفسه وحسده لأقرانه من خبث باطنه، وهكذا يرأى بأعماله وعلومه وإذا خطر له خاطر الرياء قال: هيهات؟ إنما غرضي من إظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بي ليهتدوا إلى دين الله تعالى فيتخلصوا من عقاب الله تعالى: ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الخلق

بغيره كما يفرح باقتدائهم به، فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان، كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم فإنه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر، وربما يذكر هذا له فلا يخليه الشيطان أيضًا ويقول: إنما ذلك لأنهم إذا اهتموا بي كان الأجر لي والثواب لي، فإنما فرحي بثواب الله لا بقبول الخلق قولي! هذا ما يظنه بنفسه والله مطلع من ضميره على أنه لو أخبره نبي بأن ثوابه في الخمول وإخفاء العلم أكثر من ثوابه في الإظهار، وحبس مع ذلك في سجن وقيد بالسلاسل لا حتال في هدم السجن وحل السلاسل حتى يرجع إلى موضعه الذي به تظهر رئاسته نم تدريس أو وعظ أو غيره، وكذلك يدخل على السلطان ويتودد إليه ويشني عليه ويتواضع له، وإذا خطر له أن التواضع للسلطين الظلمة حرام قال له الشيطان: هيهات! إنما ذلك عند الطمع في ماله، فأما أنت فغرضك أن تشفع للمسلمين وتدفع الضرر عنهم وتدفع شر أعدائك عن نفسك! والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان فصار يشفعه في كل مسلم حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين ثقل عليه ذلك، ولو قدر على أن يقبح حاله عند السلطان بالطعن فيه والكذب عليه لفعل. وكذلك قد ينتهي غرور بعضهم إلى أن يأخذ من مالههم وإذا خطر له أنه حرام. قال له الشيطان: هذا مال لا مالك له وهو لمصالح المسلمين وأنت إمام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين! أفلا يحل لك أن تأخذ قدر حاجتك.

ولعل الذين فسد دينهم واستحلوا أموال السلاطين ورغبوا في طلب الدنيا والإقبال على الرئاسة والإعراض عن الآخرة بسببه أكثر من الذين زهدوا في الدنيا ورفضوها وأقبلوا على الله فهو على التحقيق دجال الدين وقوام مذهب الشياطين لا إمام الدين: إذ الإمام هو الذي يقتدي به في الإعراض عن الدنيا والإقبال على الله كالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصحابه وعلماء السلف. والدجال: هو الذي يقتدي به في الإعراض عن الله والإقبال على الدنيا. فلعل موت هذا أنفع للمسلمين من حياته وهو يزعم أنه قوام الدين، ومثله

كما قال المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ للعالم السوء: إنه كصخرة وقعت في فم الوادي فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع.

وفرقه أخرى: أحكموا العلم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات واجتنبوا ظواهر المعاصي، وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والحقد والكبر وطلب العلو، وجاهدوا أنفسهم في التبري منها وقلعوا من القلوب منابتها الجلية القوية، ولكنهم بعد مغرورون؛ إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكائد الشيطان وخبايا خداع النفس ما دق وغمض مدركه فلم يفتنوا له وأهملوا. فترى أحدهم يسهر ليله ونهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها وجمع التصانيف فيها، وهو يرى أن باعته الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته. ولعل باعته الخفي هو طلب الذكر وانتشار الصيت في الأطراف، وكثرة الرحلة إليه من الآفاق، وانطلاق الألسنة عليه بالثناء، والمدح بالزهد والورع والعلم، والتقديم له في المهمات وإثاره في الأغراض، والاجتماع حوله للإستفادة والتلذذ بحسن الإصغاء عند حسن اللفظ والإيراد، والتمتع بتحريك الرءوس إلى كلامه والبكاء عليه والتعجب منه، والفرح بكثرة الأصحاب والأتباع والمستفيدين، والسرور بالتخصص بهذه الخاصية من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد، والتمكن به من إطلاق لسان الطعن في الكافة المقبلين على الدنيا لا عن تفجع بمصيبة الدين، ولكن عن إدلال بالتمييز واعتداد بالتخصيص. ولعل هذا المسكين المغرور حياته في الباطن بما انتظم له من أمر وإمارة وعز وانقياد وتوقير وحسن ثناء، فلو تغيرت عليه القلوب واعتقدوا في خلاف الزهد بما ظهر من أعماله فحساه يتشوش عليه قلبه وتحتلط أوراذه ووظائفه. وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه وربما يحتاج إلى أن يكذب في تغطية عيبه. وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض وهو يرى أنه يؤثره لتقدمه في الفضل والورع، وإنما ذلك لأنه أطوع له وأتبع لمراده وأكثر ثناء عليه وأشد إصغاء إليه وأحرص على خدمته، ولعلمهم يستفيدون منه ويرغبون في العلم وهو يظن أن قبولهم له

لإخلاصه وصدقه وقيامه بحق علمه فيحمد الله تعالى على ما يسر على لسانه من منافع خلقه، ويرى أن ذلك مكفر لذنوبه ولم يتفقد مع نفسه تصحيح النية فيه. وعساه لو وعد بمثل ذلك الثواب في إثارة الخمول والعزلة وإخفاء العلم لم يرغب فيه لفقده في العزلة ولاختفاء لذة القبول وعزة الرئاسة، ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان: من زعم من بني آدم أنه بعلمه امتنع مني فيجهله وقع في حبائي. وعساه يصنف ويجهل فيه ظاناً أنه يجمع علم الله ليتنفع به، وإنما يريد به استطارة اسمه بحسن التصنيف، فلو ادعى مدح تصنيفه ومحا عنه اسمه ونسبه إلى نفسه ثقل عليه ذلك.

